مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 481 - 504 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

مظاهر الاتساق النصي في التراث العربي

Aspects of Textual Coherence in Arab Patrimony

مليكة يعيش[1]*، د: نعيمة بن علية[2]

Malika yaiche[1], naima ben alia[2]

كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي محند أولحاج –البويرة– (الجزائر)

University of Bouira- Algeria

y92malika@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/06	تاريخ القبول:2020/04/20	تاريخ النشر : 2020/09/15

مُلخص البحث

يعد مفهوم الاتساق النصي من بين المفاهيم اللسانية الحديثة، فهو معيار مهم وأساسي للتمييز بين النص واللانص، فمن خلال اتباع وسائله وأدواته يمكن أن يصل القارئ إلى فهم النصوص وتأويلها، فهو يجعل النص وحدة متماسكة يفضي بعضها إلى بعض، ولعلّ العرب القدامى قد فطنوا إلى مختلف هذه الوسائل النصية التي تجعل النص وحدة متماسكة، فحكموا على قصائد الشعراء بالحسن والقبول من خلال ما لمسوه من حسن الرصف وجودة السبك.

ومن هذا المنطلق تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مختلف مظاهر الاتساق عند العلماء العرب القدامى، وكيفية تجلي هذا المفهوم عندهم، من خلال التطرق في بداية البحث إلى مفهوم الاتساق النصي وعناصره، أما الجزء الثاني من البحث فقد خصص للكشف عن هذا المفهوم عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى.

الكلمات المفتاح : الاتساق، النص، الاتساق النصي، التراث العربي.

Abstract:

The aspect of textual coherence is considered one of the modern linguistic concepts. It is an important and fundamental criterion for distinguishing between text and non-text. By following its methods and tools, the reader can come to understand and interpret texts. It makes the text a coherent whole that leads to one another. The ancient Arabs might have been aware of these various textual means that make the text a coherent unity, they gave the poems a well and acceptable judgment through the good order and the

* مليكة يعيش. y92malika@gmail.com

quality of casting they found in them.From this standpoint, this study aims at revealing various aspects of coherence among ancient Arab scholars and how this concept had emerged, by tackling at the beginning of the research the concept of textual coherence and its elements. The second part of the research is dedicated to reveal this concept among ancient Arab critics and rhetoricians.

Key words: Coherence, Text, Text Coherence, Arab Patrimony.

مقدمة

تقوم النصوص بشتى أنواعها على مجموعة من المعايير التي تجعلها قابلة للقراءة والفهم والتأويل، ولعل من أهم هذه المعايير معيار الاتساق النصي الذي يجعل النص وحدة متماسكة ومترابطة يفضي بعضها إلى بعض، ومن دون شك فإن العرب القدامى قد فطنوا إلى مثل هذه المسائل في دراساتهم، فقدموا بالشرح والتحليل مختلف المظاهر التي تربط بين العناصر المكونة للنص خاصة عند دراسة النص القرآني وتبيين إعجازه، وهذا ما سيتضح من خلال هذا البحث الذي وسمناه بـ "مظاهر الاتساق النصي في التراث العربي".

أما الهدف الأساسي من البحث فهو التنويه بما جاءت به الدراسات العربية القديمة وأثرها في الدراسات اللسانية الحديثة، وكذا تبيين مدى ضرورة الاتجاه إلى الدراسات التراثية لترقية الدرس اللساني العربي الحديث وجعلها المنطلق الأساسي الذي ننطلق منه لتطويره، إضافة إلى التنبيه إلى وجود مصطلحات ومفاهيم تراثية تحمل دلالات المفاهيم اللسانية الحديثة نفسها، كما نسعى لتوجيه الباحثين إلى الدراسات التراثية للبحث والتنقيب والكشف عن أسرارها. وعليه فقد سعينا في هذا البحث للإجابة عن السؤال الآتي: ما هو مفهوم الاتساق النصي وما هي عناصره؟ وكيف تجلى هذا المفهوم عند العلماء العرب القدامى؟

أولا: الاتساق النصي وعناصره

يشمل الاتساق العديد من العناصر التي تميز النص عن اللانص، فهو المعيار الأساسي الذي من خلاله يفهم المتلقي الدلالة المتمخضة عن التصاق العناصر اللغوية بعضها ببعض وفق نظام لغوي محكم، وغياب هذه الدلالة لا بد أن يكون نتيجة لغياب الترابط المنطقي بين العناصر اللغوية، وعلى هذا الأساس، فالاتساق يتحقق بمختلف الوسائل الشكلية التي تضمن له

الاستمرارية في ظاهر النص، سواء أكان ذلك عن طريق النحو أم عن طريق المفردات، فالأول يسمى الاتساق النحوي، والثاني يسمى الاتساق المعجمي.

1-مفهوم الاتساق

يعد مصطلح (cohesion) من المصطلحات التي تباين مفهومها عند الدارسين، فمنهم من جعله يدل على الترابط الشكلي الذي يكون على مستوى البنية السطحية للنص، وهناك من جعله يدل على الجانب التركيبي والدلالي في آن واحد، وثالث استعمل مصطلح الانسجام للدلالة على مفهوم الاتساق، وبهذا تداخلت المفاهيم فيما بينها وصعب تحديد مفهوم دقيق له.

جاء في معجم أوكسفورد كل من مصطلحي cohesion و coherence مقابلا لمصطلح التماسك والترابط[1]، في حين نجد تمام حسان قد ترجم مصطلحcoherence بلفظ الالتحام للدلالة على الترابط المفهومي[2]، أما صلاح فضل فقد قابله بمصطلح الانسجام والتماسك، وجاء مصطلح الانسجام والائتلاف في "القاموس" مقابلا للمصطلح الفرنسي cohérent.[3] أما cohésion فقد ترجم بالتماسك[4].

إن ما يلاحظ على هذه الترجمات أنها ترجمات متباينة ومختلفة، كما أنها ترجمات عامة، فمثلا مصطلح التماسك يمكن إطلاقه على الارتباط البنيوي وعلى الارتباط الدلالي، وهذا ما هو مبين في ترجمة معجم أوكسفورد، أما ترجمة تمام حسان فقد ميزت بين المصطلحين حيث جعلت مصطلح coherence يدل على الانسجام أو الالتحام «الذي يتطلب من الإجراءات ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي concepptual connectivity»[5]، أما مصطلح cohesion فجاء للدلالة على الاتساق أو السبك الذي «يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية surface على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق ...بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي sequential connectivity وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط»[6]، ومن هنا فتمام حسان يجعل الاتساق مرتبطا بالبنية السطحية للنص، من خلال ارتباط السابق باللاحق الذي يضمن استمرارية النص ويحقق التماسك البنيوي والدلالي.

ومن هنا فالاتساق يدل «على مجموع الوسائل اللسانية الرابطة بين عناصر الجملة وبين الجمل والتي تسمح لملفوظ ما شفوي أو كتابي بأن يبدو في شكل نص»[7]. يشير هذا القول إلى

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 481 - 504 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

مختلف «الأدوات الكلامية التي تسوس العلاقات المتبادلة بين التراكيب الضمن جملية أو بين الجمل»[8]، وهذا معناه أن الاتساق يمكن توفره بين عناصر الجملة الواحدة وبين الجمل، بخلاف الرأي القائل من أن التماسك هو «درجة التجاذب بين عنصرين لغويين في جملة واحدة»[9] فقط.

ويطلق على مفهوم الاتساق أيضا مصطلح التماسك الذي «يعني الصلابة والوحدة والاستمرار»[10] والذي ينشأ من خلال شبكة الروابط التي تربط بين مكونات النص وأجزائه بطريقة خطية فيجعلها كُلاًّ موحدا، وهذا المفهوم عبَّر عنه "لوتمان" (Luthman) في تعريفه للنص «بأنه لا بدّ من تأسيسه "بنيويا"»[11]، وبناء على هذا فالمقصود بالاتساق عادة «ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة للنص/ خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته»[12]، وعلى هذا فالاتساق ينشأ غالبا عن طريق الأدوات التي تظهر في النص مباشرة «مثل علامات العطف والوصل والفصل والترقيم، وكذلك أسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة وأبنية الحال والزمان وأسماء المكان، وغير ذلك من العناصر الرابطة التي يعنى علم اللغة بتحديدها، وتقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواها الخطي المباشر للقول»[13].

أما هاليداي ورقية حسن فقد رفضا هذه النظرة البنيوية للاتساق؛ لأن العلاقات البنيوية لا تكون إلا بين مكونات الجملة الواحدة، أما العلاقات بين الجمل في النص فهي «علاقات دلالية، والنص هو وحدة دلالية، وليس وحدة نحوية؛ لأن العلاقات بين عناصره ليست علاقات بنيوية على غرار ما نجده بين المفردات في الجملة الواحدة أو بين الأصوات في الكلمة»[14]، ومن خلال هذا القول يتضح أن الاتساق حسبهما لا يطلق على الروابط التي تكون بين عنصرين لغويين في جملة واحدة، وإنما يطلق على العلاقات التي تكون بين الجمل داخل المتتالية النصية، فالاتساق «مفهوم دلالي، إنه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدده كنص»،[15] وتعتمد هذه الخاصية الدلالية للخطاب «على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى»[16]، وبهذا فإن هذه النظرة للاتساق ألغت مختلف الروابط الشكلية التي تسهم في بناء النص واستمراره من الناحية البنيوية.

وبناء على هاتين الرؤيتين لمفهوم الاتساق يمكن القول إنّ الاتساق القائم على مختلف الروابط الشكلية البارزة على سطح النص هي التي تمكّن المتلقي من فهم الخطاب وتمثل دلالاته

وبذلك الحكم على مدى اتساق النصوص وانسجامها، ف «النص يتوفر على أدوات الاتساق التي يقوم المتكلم من خلالها بتشفير تعليمات تساعد المتقبّل على بناء تمثل ذهني منسجم للخطاب»[17]، وبذلك لا يمكن إلغاء الجانب البنيوي ولا الجانب الدلالي في بناء النصوص، ويرجع الحكم على اتساقها وتماسكها إلى القارئ لأن «مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضفيه القارئ على النص»[18] بالاعتماد على الظروف المحيطة بإنتاج النص والخلفيات المعرفية السابقة للمتلقي ويدخل في هذا أيضا «ما يسمى بكفاءة النص أو إنجازه، فإن نظم العقائد والأعراف والأبنية العاطفية، وما يطلق عليه الشفرات المساعدة، تسهم كلها في صنع هذا التماسك»[19]. وبناء على هذا، فالترابط البنيوي قد لا يكفي لفهم النص، ولذا يلجأ القراء إلى الاعتماد «على تجاربهم السابقة، ومعارفهم وأهدافهم ومنظورهم الشخصي. كما يعتمد على مواقفهم في إسناد هذا النوع من التماسك على النصوص التي يقرؤونها أو يشاركون فيها»[20].

وبذلك ففهم النصوص والحكم على أنها متسقة يرجع إلى القارئ الذي يضفي على مفهوم الاتساق الخاصية الذاتية من خلال المعارف الشخصية السابقة له، وقد تفطن علماء البلاغة إلى أهمية هذه المعارف في فهم النصوص، ويظهر هذا من خلال شرح السكاكي لآيات من سورة الغاشية وهي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعتْ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[21]، فالقارئ هنا لا يمكنه أن يستحضر ويتبيّن وجه ارتباط الآيات بعضها ببعض إلا من خلال جملة من المعطيات التي لا يتوفر عليها النص، ولهذا فإن فهم هذه الآية يتوقف على أهل الوبر الذين يكون مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي وبذلك تكون «عنايتهم مصروفة، لا محالة، إلى أكثرها نفعا، وهي: الابل ثم إذا كان انتفاعه بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب، كان جل مرمى غرضهم نزول المطر، وأهم مسارح النظر عندهم السماء، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يأويهم، وإلى حصن يتحصنون فيه، ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال»[22]، وعلى هذا فللبدوي القدرة على فهم الآية وتمثل معناها لمعرفته وعيشه في تلك الحالة التي وصفناها، بخلاف الحضري الذي لا يمكنه فهم هذا النسق «لبعد البعير عن خياله في مقام النظر، ثم لبعده في خياله عن السماء، وبعد خلقه عن رفعها»[23]. ولهذا فلكي يعرف الحضري مدى اتساق الآية ومعانيها لا بدّ أن يكون على دراية بالحال التي يعيشها البدوي ف «إذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت، ظنَّ النسق بجهله معيبا، للعيب

فيه»[24]. ومن هنا ففهم النص وتمثل دلالاته لا يتوقف على الروابط الشكلية فقط وإنما يتعداها ليشمل مختلف المعارف غير اللغوية لكل من المرسل والمتلقي والتي تساعد هذا الأخير في الحكم على تماسك النصوص وانسجامها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النظر في بنية الخطاب من جهة، والعلاقات المعنوية التي تربط بين أجزاء الخطاب من جهة أخرى هو «أقرب إلى مفهوم المناسبة القديم؛ ذلك أن علماء المناسبات اعتمدوا في تحليلهم للعلاقات في الخطاب القرآني على أدوات الربط التي رأوها واسِمة لأنواع من العلاقات بين الجمل»[25]، ولهذا راح علماء التفسير يبينون الإعجاز البياني في ترتيب السور وتتاليها، فما إن تتم سورة إلا وتمهد للسورة اللاحقة لها، وبذلك يظهر الاتصال والترابط والاتحاد والتآلف بين أجزاء السورة الواحدة وما بين السور، ويدل هذا على أن القرآن كله وحدة متماسكة متينة الترابط يفضي بعضها إلى بعض، فنهاية كل سورة من سور القرآن هي مناسبة لما تفتتح به السورة الموالية، وفي هذا يقول الزركشي: «وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها...كافتتاح سورة البقرة بقوله ﴿الم ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ إشارة إلى الصراط في قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب وهذا المعنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة ».[26]

والأمر نفسه ذهب إليه الخويني في إظهار مناسبة أوائل سورة البقرة لأواخر سورة الفاتحة بقوله: «أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة، لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسؤول»[27]. ومن هنا فهذا التناسب بين السورتين قد أبرز ما في القرآن من لحمة متينة وتأليف محكم الأجزاء من خلال توضيحه للارتباط والتماسك الحاصل بين سور القرآن الكريم، فكل سورة هي متعلقة بالسورة التي تليها ف «إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد»[28]، وهذا الاتحاد الذي يتحدث عنه السيوطي هو ما يسمى بالاتساق والانسجام في لسانيات النص.

إن فهم القرآن الكريم لا يكون إلا من خلال فهم مختلف الترابطات بين أجزائه وسوره، وهذا ما عبّر عنه السيوطي بقوله: «من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أولا من القرآن فما أُجمِل

منه في مكان فقد فسِّر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر منه»[29] أي أن علاقة السور اللاحقة بالسور السابقة علاقة تفصيل لما أجمل فيها وشرح لها ف «سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة»[30].

ويقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في بيان شدة تلاحم القرآن الكريم وكيف أن آياته وسوره متصل بعضها بالبعض الآخر على الرغم من نزوله منجما فيقول: «وإذا القرآن كلّه بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتمُّ، وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق فيه طُرًّا بما فيه من انسجام ووحدة وترابط...وإنه ليستبين لك سرُّ هذا الإعجاز، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام، لن يمكن أن يتأتى على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط»[31]، ولهذا فالقرآن كله محكم السرد من أوله إلى آخره، متين الأسلوب قوي الاتصال في سوره وآياته لا تفكك فيها ولا تخاذل، يعجز كل بليغ عن الاتيان بمثله.

كخلاصة لما سبق يمكن القول: إن الحكم على نصية النصوص تتحدد من خلال الاتساق الذي يكون على المستوى السطحي اللغوي للنص وعلى الانسجام الذي يكون على المستوى الدلالي العميق والذي يتأتى من خلال أدواته المختلفة كالسياق والمعرفة الخلفية وغيرها، ولهذا فكل من معياري الاتساق والانسجام ضروري لفهم مختلف النصوص ولا يمكن الاستغناء عن أي واحد منهما؛ فهما كوجهين لعملة واحدة. أما بالنسبة إلى التداخل في استعمال المصطلحين فذلك راجع إلى أن الحدود بينهما «لم ترسم في المرحلة المبكرة من مراحل نشأة النحو؛ إذ وقع التعامل معهما كمترادفين»[32].

2-عناصر الاتساق

ذكرنا سابقا أن للاتساق النصي أدوات ووسائل تضمن الاستمرارية للنص، سواء عن طريق النحو أوعن طريق المفردات، فالأول يسمى بالاتساق النحوي، والثاني بالاتساق المعجمي، أما الاتساق النحوي فهو يتحقق من خلال الوسائل اللغوية التي تربط عناصر النص ومن بينها:

أ: **الإحالة**: تعددت التعريفات واختلفت في تحديد مفهوم للإحالة REFERENCE فعادة ما تعرف «بأنها العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات»[33]، وبذلك فهي تتمثل في عودة بعض

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 481 - 504 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

عناصر اللفظ على عناصر أخرى تكون إما داخل النص أو خارجه، فيتضح من هذا أن الإحالة تنقسم إلى إحالة نصية وإحالة مقامية، أما الإحالة النصية فتتم عادة بوساطة الضمائر، وأسماء الإشارة، والاسم الموصول، وأدوات المقارنة، وتكون إما قبلية أو بعدية، فالإحالة القبلية (anaphora) تشير إلى عنصر سبق ذكره وتسمى أيضا الإحالة بالعود. أما الإحالة البعدية (cataphora) فإنها تشير إلى عنصر لاحق في النص وتسمى الإحالة على اللاحق[34]. أما الإحالة المقامية أو الإحالة إلى السياق الخارجي، أو كما تسمى إحالة خارج النص أو خارج اللغة، ففيها يحيل عنصر في النص إلى شيء غير مذكور في النص إلا أنه يمكن معرفته من خلال سياق الموقف وبعض الضمائر مثل: أنا، نحن، وبذلك فهي تربط اللغة بسياق المقام إلا أنها لا تسهم في اتساقه مباشرة[35] ولكن لها دور وأهمية في إبراز المعنى الخفي الذي قد لا يتأتى من مختلف الروابط النصية، وذلك بربط النص بالسياق الخارجي ومعرفة الظروف الخارجية المحيطة بإنتاجه.

ب: **الاستبدال**: وهو من صور التماسك النصي الذي يتم على المستوى المعجمي فهو «عملية نصية داخلية تعتمد على تعويض عنصر بآخر»[36]، ويختلف عن الإحالة في كونه علاقة تتم على المستوى النحوي-المعجمي بين الكلمات أو العبارات، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي. وتكون «معظم حالات الاستبدال النصي قبلية Anaphora، أي علاقة بين عنصر متأخر وعنصر متقدم»[37]، وبناء عليه فالاستبدال يعد مصدرا أساسيا من مصادر اتساق النصوص وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: استبدال اسمي وهو الذي تستخدم فيه عناصر لغوية اسمية مثل: آخر، آخرون، نفس، ومثاله: ساعتي قديمة، سأشتري أخرى جديدة. فلفظة (الساعة) استبدلت بلفظة (أخرى)، ومن أمثلته أيضا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَة فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَة تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وأُخرَى كَافِرَة﴾[38]، فقد استبدلت لفظة فئة بلفظة أخرى. أما القسم الثاني فهو الاستبدال الفعلي الذي يكون من خلال استعمال ألفاظ ك (يفعل، الفعل، فعل)، ومثاله: لم يكتب التلميذ دروسه، هذا الفعل أزعج أستاذه. أما القسم الثالث فهو الاستبدال القولي الذي يكون باستخدام (ذلك، لا)[39]، ومثاله: هل وجدت حلا للمسألة؟ - ذلك ما كنت أفكر فيه. والتقدير: إيجاد حل للمسألة ما كنت أفكر فيه.

ج: **الحذف**: ويعد وسيلة من وسائل التماسك النصي ولا يكون «إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنيا في الدلالة كافيا في أداء المعنى. وقد يحذف أحد العناصر لأن

هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه. ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره»[40] ويرتبط المحذوف عادة بعلاقة قبلية مع العناصر اللغوية التي تسبقه، وبذلك فهو مرتبط بالنص لا بالجملة، وهو شبيه بالاستبدال إلا أنه استبدال من الصفر فلا يحل محل المحذوف شيء، بخلاف الاستبدال الذي يترك أثرا يسترشد به المتلقي وهي كلمة من الكلمات، ويقسم الحذف إلى ثلاثة أقسام: [41]

حذف اسمي: وهو الذي يكون بحذف اسم داخل المركب الاسمي مثل: أي فستان ستلبسين؟ -هذا هو الأحسن. والأصل: هذا الفستان هو الأحسن.

وحذف فعلي: ويكون داخل المركب الفعلي مثل: -فيما كنت تفكر؟ -الإجابة. والأصل: كنت أفكر في الإجابة.

أما الحذف داخل ما يشبه الجملة: فهو الذي يكون داخل شبه جملة مثل: كم ثمن هذا القميص؟ -خمسة جنيهات.

د: الوصل: ويقصد به «الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم ومنسق، ويكون على مستوى المتواليات والجمل، حيث تتماسك وتترابط عضويا ومنطقيا ولغويا وتركيبيا»[42] ومن أشهر أدوات الوصل أو الربط حروف العطف وهي: «الواو، والفاء، وثم، ولكن، وبل، ولا»[43]، وتكمن وظيفته في جعل الجمل المكونة للنص مترابطة متماسكة، وينقسم الوصل إلى وصل عكسي، إضافي، سببي، وزمني.[44]

أما بالنسبة للاتساق المعجمي فهو ينقسم إلى قسمين:

أ: التكرار: وهو من أشكال الاتساق المعجمي الذي يتطلب «إعادة عنصر معجمي، أو وجود مرادف له، أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما»[45]، وهناك من يطلق عليه اسم «الإحالة التكرارية»[46]، وقد ذكر هاليداي ورقية حسن مثالا يمكن أن يتحقق به الاتساق المعجمي بمختلف أنماطه وهو: شرعت في الصعود إلى القمة، الصعود سهل للغاية. فكلمة الصعود تعتبر إعادة لنفس الكلمة الواردة في الجملة الأولى وهذا تكرار محض أو تام، أما الترادف فمثاله: شرعت في الصعود إلى القمة، التسلق سهل جدا، فالتسلق مرادف للصعود إذ كرّر المعنى واللفظ مختلف. أما الاسم الشامل فمثاله: شرعت في الصعود إلى القمة، العمل سهل للغاية، فلفظة (العمل) شملت اللفظة الأولى (الصعود). أما الاسم العام يمكن أن يدرج فيه الصعود ومثاله:

شرعت في الصعود إلى القمة، الشيء/ الأمر سهل للغاية. فلفظة (الشيء) عامة تندرج ضمنها أيضا كلمة الصعود.[47]

ب: التضام (المصاحبة المعجمية): وتعني «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك»[48]، وهذه العلاقات الحاكمة للتضام هي: التضاد ومثاله: ميت-حي/ متزوج-أعزب/ ذكر-أنثى/ ولد-بنت، كما يوجد نوع من التضاد وهو تضاد العكس ومثاله: باع-اشترى/ زوج-زوجة. والتضاد الاتجاهي ومثاله: أعلى-أسفل. ومن علاقات التضام أيضا التنافر الذي يرتبط بفكرة النفي ومن أمثلته: خروف-فرس/ قط-كلب/ بالنسبة لكلمة حيوان، ويرتبط التنافر أيضا بالرتبة مثل: ملازم، رائد، عقيد، عميد، كما يمكن أن يرتبط بالألوان مثل: أحمر، أخضر، أزرق. وكذلك الزمن شهر، سنة، فصول. أما العلاقة الأخرى فهي علاقة الجزء بالكل، مثل علاقة اليد بالجسم والعجلة بالسيارة. فكل هذه العلاقات إذن خلقت في النص ما يسمى بالتضام.[49] ومن هنا فإن اللسانيات النصية قد أبرزت العديد من العناصر التي لها الدور الفعال في تماسك النص وبروزه كوحدة متناسقة قابلة للفهم، وذلك من خلال تطرقها إلى الأدوات التي تسمح بارتباط أجزاء النص بعضه ببعضه وجعله كلاً موحدا.

ثانيا: تجليات الاتساق النصي عند العلماء العرب القدامى

تجلت العديد من المفاهيم النصية في دراسة النقاد العرب القدامى للقصيدة الشعرية، فنظروا إليها نظرة كلية، وركزوا على أهمية أن تكون القصيدة متماسكة ومتلاحمة الأجزاء يفضي بعضها إلى بعض، فحكموا على قصائد الشعراء بما لمسوه من حسن السبك وجودة الرصف وشأنهم في هذا شأن البلاغيين الذين درسوا النص من داخله، من خلال التطرق إلى مختلف الأدوات النصية كالإحالة والحذف والتكرار والفصل والوصل.

1-الاتساق النصي عند النقاد العرب القدامى

المتأمل في كتب العلماء العرب القدامى يجدها لا تخلو من مختلف المفاهيم اللسانية التي جاءت بها اللسانيات النصية الحديثة، فقد تحدث الشعراء والنقاد العرب القدامى عن التماسك العضوي الذي يكون في القصيدة، فهذا ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء يتحدث عن اتساق الأبيات الشعرية وترابطها، ويرى أنه من التكلف في الشعر أن يجعل «البيت مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، ولذلك قال عُمرُ بن لجَإٍ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟

فقال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه»[50]، وفي هذا دلالة واضحة على أهمية الوحدة العضوية للقصيدة العربية، فجُعل أشعر منه لا لشيء إلا لأنه قال البيت وما يناسبه ويوافقه.

كما يعد ابن طباطبا من أوائل النقاد في التراث العربي الذين تنبهوا إلى ضرورة وجود الوحدة الفنية والعضوية في القصيدة، فكان يحكم على الشعراء من خلال هذه الوحدة والاتساق العضوي، حيث يقول: «وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسي السامع المعنى الذي يسوق القول إليه، كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد كلمة عن أختها، ولا يحجز بينهما وبين تمامها بحشو يشينها، ويتفقد كل مصراع، هل يشاكل ما قبله؟، فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع واحد منهما في موضع الآخر، فلا ينتبه على ذلك إلا من دق نظره، ولطف فهمه. وربما وقع الخلل في الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمعون على جهة ويؤدونه على غيرها سهوا، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه منه»[51]، فتنسيق الأبيات وحسن تجاورها يؤدي إلى فهم المعنى من السامع، بخلاف ما إذا استعمل الشاعر الحشو وباعد بين الكلمة وأختها، فهذا ما سيؤدي حتما إلى غياب المقصود الذي يرمي السامع إلى الوصول إليه من خلال هذه الأبيات.

ويضيف قائلا إن «أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله فإن قُدّم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نُقِضَ تأليفها، فإن الشعر إذا أسس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجا وحسنا وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا...حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا، كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم، لا تناقض في معانيها، ولا وَهْي في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها. فإذا كان الشعر على هذا المثال سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها راويه، وربما سبق إلى إتمام مصراع منه إصرارا يوجبه تأسيس الشعر»[52]، وعلى

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 481 - 504 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

هذا فابن طباطبا يركز على أهمية الارتباط الذي يكون بين أبيات القصيدة، وكذا مراعاة مناسبة اللفظة لأختها السابقة لها واللاحقة، وبهذا تكون القصيدة كالكلمة الواحدة في تماسكها العضوي والدلالي، وقد عبر عن هذا التماسك بأن تُجعل القصيدة كالكلمة الواحدة في سبكها وتلاحمها.

ويقول أيضا: «وأحسن الشعر ما يوضع فيه كل كلمة موضعها حتى يطابق المعنى الذي أريدت له ويكون شاهدها معها لا تحتاج إلى تفسير من غير ذاتها»[53] ومن هنا فإن ابن طباطبا قد تفطن إلى التماسك والانسجام الذي يكون في القصيدة، فيجب أن تكون الكلمة موافقة لأختها مواتية لها، فتكون القصيدة كالكلمة الواحدة متماسكة الأجزاء واضحة المعنى لا تكلف فيها كل بيت فيها قد ضم إلى أخيه وجاور ما يناسبه، ومن هنا نجد أن اتحاد أجزاء الكلام يكون ناتجا عن الترابط العضوي والموضوعي، فإن اختل هذا الشرط اختل المعنى وجُهل، ولعل هذا ما قصده القيرواني عندما قال بأن الكلام إذا كان «متنافرا متباينا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجّته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء»[54] وفي هذا إشارة إلى أن الاتساق عامل من العوامل التي تجعل النص قابلا للفهم والحفظ، راسخا في الذهن، وهذا بالابتعاد عن التباين والتنافر الذي يجعل اللسان ثقيل النطق بالكلمة أو الجملة أو النص، كما يكون سببا في صعوبة وصول الدلالة إلى المتلقي.

2-الاتساق النصي عند علماء البلاغة

وشأن البلاغيين في هذا شأن النقاد العرب القدامى الذين قارنوا بين حسن التأليف والرصف وسوئه، فهذا أبو هلال العسكري يرى أن «حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سبِيّا، ورصف الكلام رَديّا لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة»[55]، ويكون حسن الرصف من خلال اتباع قواعد النحو ومراعاتها، حيث «توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يعمي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها»[56] فكأنما قارن العسكري هنا بين النص واللانص الذي يتسم بتفكك روابطه البنيوية ونسيجه النصي الذي يؤدي حتما إلى غياب الدلالة. وعلى هذا فوضع كل لفظ موضعه وفي المكان الذي يناسبه يجلي الغموض عن الدلالة

ويوضحها، فـ «الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بمعاني القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية».[57] وقد قدّم العسكري بعض الأمثلة الشعرية المضطربة النسج والتي يجتاحها الغموض، ومنها قول خُفاف بن ندبة:[58]

إن تُعرضي وتَضّني بالنوال لنا*** تُواصلين إذا واصلْتِ أمثالي

فكان ينبغي عليه أن يقول: إن تَضّني بالنوال علينا، ومثاله أيضا قول الأعشى:

مِنَ القَاصِراتِ سجوفَ الحِجالِ*** لم تر شمسا ولا زمهريرا

ففي هذا البيت وضع لفظ الزمهرير في غير موضعه، وكان الأجدر به أن يقول: لم تر شمسا ولا قمرا، ولم يُصبها حرٌ ولا قرٌ، فكل لفظة من هذه الألفاظ تستدعي أختها.

عدّ تغيير الرتبة عند الجرجاني أحد عوامل الربط، فـ «من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين: فيجعل مفيدا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه»[59] فالتقديم والتأخير يكون إما لضرورة وزن أو قافية، كما أنه لا يكون إلا لغاية في نفس المتكلم ولاهتمامه بالأمر الذي قدمه، فيقدم المفعول به مثلا للتخصيص في مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[60]، وعليه فإننا نرتب المعاني والكلمات في أذهاننا على حسب الأهمية والعناية فإذا قدَّم الشاعر أو الناثر ظرفا ثم أخر العامل فيه وهو الفعل، جعل هذا التقديم والتأخير قطعة متماسكة تقوم على الإفادة من ذاكرة المتلقي الذي يختزن ثم يسترجع، رابطا بين المعمول وهو الظرف والعامل فيه وهو الفعل.[61]

كما تطرق الجرجاني أيضا إلى الخاصية التي يتميز بها النظم وهي خاصية التعليق، حيث يرى بأنه «لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلَّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب تلك»[62]، وعلى هذا فالجرجاني يولي أهمية كبيرة لهذه الخاصية التي تعتبر من أهم الخصائص التي يتميز بها النظم، فلا نظم في الكلم إلا من خلال توخي معاني النحو الذي يضمن الترتيب السليم والتأليف المحكم، وعلى هذا فالنظم عنده لا يكون بضم اللفظة إلى أختها كيفما جاء، ولهذا عدَّ نظيرا «للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حيث يكون لوضع كلٍ حيث وضع، علة تقتضي

كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح»[63]، وعلى هذا فنظم الكلام وحُسن سبكه يكون متباينا من ناظم إلى آخر، كما تتفاضل هذه الصناعات فيما بينها، ويكون صلاح موقع اللفظة وأهميتها ناتجا عن ملاءمة اللفظة التي قبلها لها «لأن معنى ما قبلها يقتضي معناها»[64]، وبذلك فدلالة اللفظة الثانية هي مكملة لدلالة اللفظة الأولى ومتممة لها، وينتج عن هذا الترابط والتماسك الشكلي والدلالي أن «تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول»[65].

ومن هنا يشير الجرجاني إلى ضرورة وجود تلك العلاقة الرابطة بين الجمل، كما أن هناك إشارة لمفهوم الإحالة القبلية في قوله: يشتد ارتباط ثان منها بأول، ونلمس هذا أيضا من خلال المثال الذي قدمه في باب التقديم والتأخير وهو: «ضربت زيدا، وزيد ضربته، لم تقدم "زيدا" على أن يكون مفعولا منصوبا بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء، وتشغل الفعل بضميره، وتجعله في موضع الخبر له»[66]، فالشاهد هنا في قوله: وتشغل الفعل بضميره. فمن المعروف أن الفعل دائما يحتاج إلى فاعل، والضمير هنا قام مقام الفاعل وهو زيد، وبذلك أغنى الضمير عن إعادة لفظ زيد فـ «الضمير اسم ناقص يفتقر الى اسم تام يفسره وبهذا يعود على الاسم الذي يطابقه لما له من الخصائص الدلالية وإذا كان الضمير من حيث الصورة الصوتية غير الاسم الظاهر، فإنهما دلاليا عنصر واحد»[67]، وعلى هذا فالضمير المتصل في ضربته حلَّ محل كلمة زيد وأغنى عن تكراره، وبذلك فالضمير أحال إحالة قبلية تعود على زيد.

وشبيه بهذا مثال هاليداي ورقية حسن: اغسل وانزع نوى ست تفاحات، ضعها في طبق مقاوم للنار، فالضمير في ضعها هو الذي يربط الجملة الثانية بالأولى، فإذا وضع لفظ تفاحات بدلا من الضمير كانت هي الرابط بدلا عنه وذلك من خلال تكرار لفظ تفاحات وبهذا أصبح التكرار المعجمي وسيلة من وسائل السبك[68]، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإحالة قد لا تحسن في كل سياق واستعمال؛ إذ أن المغالاة في استعمالها مع كثرة التقديم والتأخير قد يؤدي إلى فساد في القول وضعف في المعنى، وهذا ما أطلق عليه الجرجاني بفساد النظم، ويتضح هذا من خلال قول الفرزدق:[69]

وما مثله في الناس إلا مملكا *** أبو أمه حي أبوه يقاربه

فكل من التقديم والتأخير، وكثرة الإحالة أدى بهذا البيت إلى جعله غامض الدلالة، صعبا في فهم المعنى.

وكقول المتنبي: الطِيب أنت إذا أصابك طيبه***والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

أما الإحالة المقامية فقد أشار إليها أبو هلال العسكري من خلال حديثه عن إضمار غير المذكور، وقدّم مجموعة من الشواهد القرآنية، ومنها قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بالحِجَابِ﴾[70] يعني الشمس بدأت في المغيب، وقوله أيضا: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[71] يعني على ظهر الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾[72] أي بالوادي. وقوله عز وجل: ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[73] يعني عقبى هذه الفعلة. وشبيه بهذا قول لبيد:

حتى إذا ألقت يدا في كافر*** وأجن عورات الثغور ظلامها.

يعني: الشمس تبدأ في المغيب[74]. وبناء على هذا، فإن كل الإحالات الموجودة هي إحالات مقامية أشارت إلى عناصر خارج النص.

ويعد الحذف من القضايا المهمة التي عالجتها البحوث النحوية والبلاغية بوصفه انحرافا عن المستوى التعبيري الاعتيادي، ولا يكون الحذف إلا إذا أمن اللبس عن العبارة، ويختلف عن الاستبدال في كونه لا يقوم على تعويض عنصر لغوي بعنصر آخر. وقد أوضح الجرجاني أهميته من ناحيتين:

1-في إفادته ودلالته: حيث يقول: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن»[75]، فالجرجاني يرى أن الحذف يتميز بخاصية فريدة من نوعها لأنه يكون أبين وأظهر للسامع من الذكر «فرب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد»[76].

2-دوره في سبك الكلام وحسن بنائه: ويظهر هذا من خلال إيراده للعديد من الأمثلة الشعرية التي تضمنت الحذف، فيقول: «فتأمل الآن هذه الأبيات كلها، واستقرها واحدا واحدا، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فليت النفس عما تجد، وألطفت النظر فيما تحس به»[77]. كما نجده قد أشار إلى دور الحذف في السبك النصي من خلال قول البحتري:[78]

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم***كرما، ولم تهدم مآثر خالد

والأصل: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، وفي هذا يقول إن «الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ. فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: "لو شئت أن تفسد سماحة حاتم لم تفسدها" صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجه السمع، وتعافه النفس»[79]. وبناء على، هذا عدَّ الحذف وسيلة للسبك النحوي، فهو يقع في سطح النص إلا أنه يعامل معاملة المذكور من حيث المعنى، فمن خلال قراءة الجملة أو النص وإمعان النظر فيها يتبين المحذوف ويقدّر من المتلقي.

وقد أبرز أبو هلال العسكري مواطن الحذف ووجوهه، وقدّم العديد من الشواهد القرآنية، فمنه حذف المضاف وجعل المضاف إليه مقامه ويُجعل الفعل للمضاف إليه، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[80] أي حبه، ومنه أيضا: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[81] والأصل: أهل القرية، ومن هذا أيضا قول المتنخل الهذلي:

يُمشى بيننا حانوت خمر*** من الخرس الصَّراصرة القِطاط

والأصل: يمشى بيننا صاحب حانوت خمر.

ومن الحذف أيضا شمول الفعل الواحد لشيئين، وهو لأحدهما، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[82]، فحذف الفعل الخاص بـ (شركائكم) والتقدير: وادعوا شركاءكم.

ومن الحذف أيضا أن يأتي للكلام جوابا ولكنه يحذف، لعلم المخاطَب به، كقول النمر:

فإن المنية من يخشها*** فسوف تصادفه أينما

فجاء الحذف هنا لعلم المخاطب به وأصلها: أينما ذهب أو ارتحل، ويدخل في هذا حذف جواب القسم كما في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا﴾[83] والتقدير: ق والقرآن المجيد لتبعثن، والدليل على هذا ما جاء بعده من ذكر البعث في قوله عز وجل: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾[84]، ومنه أيضا حذف "لا" كما في قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا***ولو قطعوا رأسي وأوصالي

ومعناه: لا أبرح قاعدا.[85]

لقد عرف العرب الوصل ومختلف المواطن التي تقتضي العطف أو تركه، وقد كان إدراكهم لهذه المواطن فطرة وسليقة، وجاء في الأثر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لرجل:

هل تبيع هذا الثوب؟ قال: لا عافاك الله، فقال أبو بكر: قل لا وعافاك الله.[86] فالواو هنا فصلت بين جملتين الأولى هي جواب للسؤال، والثانية هي دعاء لأبي بكر، وقد تحول المعنى بحذف الواو من الدعاء لأبي بكر إلى الدعاء عليه.

والمتأمل في كلام عبد القاهر في باب الفصل والوصل يلحظ أنه قد انصرف إلى دراسة عطف الجمل بعضها على بعض وليس عطف المفرد على المفرد ضمن الجملة الواحدة، ويظهر ذلك جليا من خلال قوله في مقدمة باب الفصل والوصل: «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة»[87]، وهذا يقربه من مباحث علم لغة النص الذي يرتكز على قضية الربط بين الجمل من الناحية اللفظية والدلالية، كما أنه نبه إلى ضرورة معرفة الفصل من الوصل بين الجمل، وكذا معرفة الأماكن المناسبة لحروف العطف فيقول: «وينظر في "الجمل" التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" من موضع "ثم"، وموضع "أو "من موضع "أم"، وموضع "لكن" من موضع "بل"»[88]. وقد اعتبر الجرجاني الفصل سرا من أسرار البلاغة ومن مباحثها الصعبة والدقيقة التي لا يتفطن لها سوى «قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنًّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد»[89] حتى أن البلاغة عرّفت بأنها «معرفة الفصل من الوصل»[90].

كما تحدث عن معاني حروف العطف كـ "الفاء" التي توجب الترتيب من غير تراخ، و"ثم" التي توجب الترتيب مع التراخي، و"أو" التي تردِّدُ الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما دون غيره، فعطف الجملة بواحدة من حروف العطف هذه تظهر الفائدة فإذا قلت: أعطاني فشكرته، ظهر بالفاء أن الشكر كان معقبا على العطاء ومسَبَبا عنه، أما إذا قلنا: خرجت ثم خرج زيد، أفاد حرف العطف أن خروج زيد كان بعد خروجي مع وجود فترة زمنية بين خروجي وخروجه. وإذا قلت: يعطيك أو يكسوك، دلَّ حرف العطف على أنه يفعل أحد الشيئين لا كلاهما. أما حرف العطف الواو فهو لا يفيد سوى الإشراك في الحكم الإعرابي، فإذا قلت: جاءني زيد وعمرو. لم تفد الواو هنا سوى إشراك عمرو في المجيء الذي أُثبت لزيد.[91]

ولا يخفى على أحد أن التكرار قد استخدم في أشعار العرب القدامى لأغراض مختلفة كالتنبيه، والتوكيد، والغزل، والإشادة بالممدوح، وغيرها «وقد كان أبو الحسن مهيار بن مرزويه ممن

غري بلفظة طين وطينة...حتى وضع هذه اللفظة تارة في غير موضعها، ومستعارة لما لا يليق بها، وأقرها مقرها في بعض الأماكن، ووافق بينها وبين ما ألفت معها، وذلك موجود في شعره لمن يتتبعه»[92]. ويكون التكرار حسنا إذا بني عليه المعنى «فمتى وجدت المعنى عليه ولا يتم إلا به لم تحكم بقبحه وما خالف ذلك قضيت عليه بالإطراح ونسبته إلى سوء الصناعة»[93]، ومن هنا يتبين أن التكرار إذا لم يكن له دور في تماسك النص وبيان لمعناه وتوضيح له عدّ من سوء الصناعة لا فائدة تُرجى منه والأفضل تركه، ومن التكرار الذي لا يعاب قول الشاعر: [94]

ولولا دموعي كتمت الهوى*** ولولا الهوى لم تكن لي دموع.

ومن التكرار الممدوح أيضا قول الخنساء:[95]

وإنَّ صخرا لمولانا وسيِّدنا***وإن صخرا إذا نشتو لنحّارُ

وإن صخرا لتأتمُّ الهداة به*** كأنه عَلَم في رأسه نار.

وبذلك فقد كان للتكرار هنا دور في الإشادة بالممدوح وإبراز لصفاته وتفخيم له في الأسماع والقلوب، وكأنها تقول بتكرارها لهذا اللفظ بأنه لا يوجد مثل أخيها كرما وشجاعة ومنقذا في الأهوال. أما بالنسبة إلى التكرار غير الممدوح الخارج عن الحدِّ فمثاله قول ابن الزيات: [96]

أتعزف أم تقيم على التصابي؟ *** فقد كثرت مُنَاقله العتاب

إذا ذكر السلوُّ عن التصابي*** نفرت من اسمه نفر الصعاب

وكيف يلام مثلك في التصابي*** وأنت فتى المجانة والشباب؟!!

سأعزف إن عزفت عن التصابي*** إذا ما لاح شيب بالغراب

ألم تربي عدلت عن التصابي*** فأغرتني الملامة بالتصابي؟!!

ولهذا يرى القيرواني أن الشعر قد بَرُد من كثرة تكرار اللفظ نفسه وبمعنى واحد، ومن أمثلة هذا التكرار أيضا قول محمد بن مناذر الصبيري في معنى التكثير:

كم وكم كم كم وكم كم كم وكم*** قال لي: أنجز حُرُّ ما وعد

وقد ورد مصطلح التضام collocation عند الجرجاني إثر حديثه عن الكلمة التي لا تكون لها فائدة إلا من خلال ملاءمة معناها لمعنى جارتها، وفي هذا يقول: «وهل تجد أحدا يقول: "هذه اللفظة فصيحة"، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحُسنِ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: "لفظة متمكنة، ومقبولة"، وفي خلافه "قلقة، ونابية

ومستكرهة "، إلا وغرضهم أن يعبِّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنُّبُوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تَلِق بالثانية في معناها، وأنَّ السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقًا للتالية في مؤدَّاها»[97]، ثم بعد هذا يذكر قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[98]، يقول: «فتجلى لك منها الإعجاز ..لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة...أن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها...ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة...كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب»[99]

لا يمكن القول بأن الاتساق هو العامل الوحيد الذي يجعل من متوالية جملية نصا، إذ أن للانسجام دورا مهما وبارزا في تحديد دلالة الملفوظ أو المكتوب، فقد يكون النص حاملا لمختلف الروابط الشكلية إلا أنه لا يمكن تفسيره، وبذلك فإن كلا من الاتساق والانسجام وجهان لعملة واحدة وهي النص، ولعل هذا ما أشار إليه الجرجاني عندما تحدث عن نظم الكلم التي نقتفي «في نظمها آثار المعاني، وترتبها حسب ترتيب المعاني في النفس»[100]، وعليه لا يكون رصف هذه الألفاظ كيفما جاء، وإنما الغاية من رصفها هذا الرصف المتين بغية إيضاح الدلالة وبيان المقصود، وبذلك فوضع الألفاظ بطريقة مخصوصة وترابطها بعضها بالبعض الآخر يشبه النسج والصياغة والبناء الذي يكون تاما ومكتملا من خلال وضع كل لبنة في مكانها الصحيح، ويوافق هذا ما جاءت به اللسانيات النصية الحديثة التي عرفت النص بأنه «نسيج من الجمل المتضامنة والمتضافرة والمتراكبة والمتتابعة، لا يمكن فهمه إلا بتتبع ملفوظاته واستقصائه جملة جملة بغية إدراك المعنى والغاية والمنتهى والفائدة المرجوة»[101] هذا الأمر يجعلنا نعتبر الاتساق ناتجا عن البنية الشكلية المرتبة حسب ترتيب البنية الدلالية التي تعطي الحركية للنص والمأخوذة من هذه الطبقة الشكلية على مستوى النص.

خاتمة

من خلال ما سبق ذكره يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

لم تخف على العلماء العرب القدامى مختلف مظاهر التماسك النصي، فقد كانت لهم إشارات واضحة وبارزة في مختلف مؤلفاتهم، فكثيرا ما نظروا إلى اتقان بنية الشعر وتلاحم الكلام

بعضه ببعض، كما نجدهم قد اهتموا بالوحدة العضوية والموضوعية للقصيدة وكان حكمهم ناتجا عن مدى التماسك والترابط بين أجزائها المؤلفة لها، وهذا ما له علاقة بالاتساق والانسجام.

تطرق عبد القاهر الجرجاني إلى العديد من المفاهيم التي تشابه المفاهيم اللسانية النصية الحديثة، حيث نجده في معظم كتابه يتحدث عن أهمية وضع اللفظة في المكان المناسب لها، وضرورة وجود روابط تربط السابق باللاحق من خلال الربط النحوي، فدون الاعتماد على القواعد النحوية يكون النسيج النصي مهلهلا خاليا من المعنى، وقد أطلق عليه الجرجاني "فساد النظم"، ولعل هذا يقترب من مفهوم اللانص.

أشار الجرجاني إشارة سريعة إلى الإحالة القبلية من خلال المثال الذي قدمناه سابقا، وأشار أبو هلال العسكري إلى الإحالة المقامية من خلال شرحه لبعض آيات القرآن الكريم، حيث ربط النص القرآني بعناصر خارجة عنه.

ما جاءت به اللسانيات النصية الحديثة هو امتداد لما جاءت به الدراسات العربية القديمة، حيث نجد مختلف مظاهر التماسك النصي من تكرار، وحذف، وفصل، ووصل، قد تطرق إليها العرب القدامى في مؤلفاتهم، وأشاروا إلى دورها في جعل النص وحدة متماسكة.

هوامش

[1] university press ,Oxford wordpower, first published, 1999, new York, p173.

[2] ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص103.

[3] مكتب الدراسات والبحوث، القاموس، عربي فرنسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص7.

[4] مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، فرنسي إنكليزي عربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص52.

[5] روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص103.

[6] نفسه، ص103.

[7] باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القاهر المهيري، حمّادي صمّود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص100.

[8]منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2004، ص132.

[9]مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، ص52.

[10]صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 164، أغسطس 1992، ص243

[11]نفسه، ص244.

[12] محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، ص5.

[13]صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص244.

[14]شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المملكة المغربية، الرباط، ط1، 2018، ص131.

[15]محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص15.

[16]صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص244.

[17]شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص124.

[18]صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص241.

[19]نفسه، ص241.

[20]نفسه، ص243

[21]سورة الغاشية، الآية 17، 18، 19، 20.

[22]أبو بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص257.

[23]نفسه، ص257.

[24]نفسه، تص258.

[25]شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص124.

[26]بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1957، ج1، ص38.

[27]جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص65.

[28]نفسه، ص74.

[29]السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ج4، ص199

[30]السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص65.

[31]محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فوّاز أحمد زمَرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ج1، ص53، 54.

[32]شوقي البوعناني، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص125.

[33]روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص172.

[34]ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001، ص117.

[35]ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص121، 122.

[36]جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، ط1، 2015، ص73. شبكة الألوكة wwwalukah.net

[37]أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص122.

[38]سورة آل عمران، الآية 13.

[39]ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص123، 124.

[40]نفسه، ص125.

[41]ينظر، نفسه، ص126، 127.

[42]جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، ص73.

[43]نفسه، ص69.

[44]ينظر: نفسه، ص73.

[45]نفسه، ص74.

[46]أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص106.

[47]ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998، ص83، 84.

[48]جميل حمداوي، محاضرا ت في لسانيات النص، ص74.

[49]ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص112، 113.

[50]ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط2، ج1، ص90.

[51]محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص129.

[52]نفسه، ص131.

[53]نفسه، 132.

[54]أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، ط5، 1981، ج1، ص257.

[55]أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، ط1، 1952، ص107.

[56]نفسه، ص107.

[57]نفسه، ص107.

[58]ينظر: نفسه، ص109.

[59]أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ص110.

[60]سورة الفاتحة، الآية 5.

[61]ينظر: إبراهيم محمود خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007، ص229.

[62]الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص55.

[63]نفسه، ص49.

[64]نفسه، ص52.

[65]نفسه، ص68.

[66]نفسه، ص107.

[67]العيد علاوي، التماسك النحوي وأشكاله وآلياته دراسة تطبيقية لنماذج من شعر محمد العيد آل خليفة، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، عدد2011، ص130.

[68]ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص79.

[69]الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص83.

[70]سورة ص، الآية 32.

[71]سورة النحل، الآية 61

[72]سورة العاديات، ص4.

[73]سورة الشمس، الآية 15.

[74]ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص184، 185.

[75]الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص146.

[76]نفسه، 151.

[77]نفسه، ص151.

[78]نفسه، ص163.

[79]نفسه، 163.

[80]سورة البقرة، الآية 93.

[81]سورة يوسف، الآية 82.

[82]سورة يونس، الآية 71.

[83]سورة ق، الآية 1.

[84]سورة ق، الآية 3.

[85]ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص181، 182، 183، 184.

[86]ينظر: صبّاح عبيد دراز، أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1986، ص9.

[87]الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص222.

[88]نفسه، ص82.

[89]نفسه، ص222.

[90]نفسه ص222.

[91]ينظر: نفسه، ص224.

[92]أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص106.

[93]نفسه، ص107.

[94]نفسه، ص106.

[95]القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ص74.

[96]ينظر: نفسه ج2، ص74، 75، 77.

[97]الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص44، 45.

[98]سورة هود، الآية 44

[99]الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص45.

[100]نفسه، ص49.

[101]جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، ص6.